جمالية التشكيل البصري في ديوان (ولعينيكِ هذا الفيضُ) لـ"عثمان لوصيف

بن يمينة زهرة

جامعة عبد الحميد بن باديس-مستغانم-

zohra.benyamina@univ-mosta.dz

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2016-02-15	2016-04-10	2016-12-31

ملخص :

اشتغل موضوع هذه الدّراسة حول الصّورة البصرية وتجلّياتها في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، ممثّلة في شعر "عثمان لوصيف"، وقد كشف عن تداخل الجانب الفنّي مع الأدبي والتّراسل بين الصورة واللفظ، باعتبار أن الخطاب الشعري لوحة فنية تقوم على المحاكاة، وشبكة ألفاظ تستعير الحواس ولا تخلو من العاطف، فتنتج عندئذ صورة أدبية فنية مفعمة بالحركية تتّخذ من الشّعر مساحة وجدانية للرسم بالكلمة.

الكلمات المفتاحية: الصّورة البصرية، الخطاب الشعري، الحواس، الصورة الأدبية، الرسم بالكلمة.

مقدّمة:

تعدّ الصّورة البصرية أحد أهمّ الآليات في تصوير المعنى الشّعري كونها تُخرج الشّعر من جانبه اللفظي إلى تشكيل بصري للرّسم فيه الحضور البالغ، وتسعى هذه العملية إلى خلق عوالم متناسقة ومتشاكلة بين الشّعر والصورة، و"عثمان لوصيف" كما سيتبين لنا، يمارس الكتابة بالبصر في ديوانه (ولعينيكِ هذا الفيض)، وتجربته مفعمة بالإيحاء والجمالية التي أصبغها التّصوير البصري الذي أغناه كلّ من الخيال، وجماليات المكان، والاتّجاه الفكري له.

1- تصوير المكان وأثره في تكثيف الصّور:

يعدّ العنوان عتبة إشارية مهمّة تتفجّر منها مختلف الأيقونات الشّارحة للدّلالات الثّاوية في الخطاب الشّعري، ويرد العنوان (**و لعينيكِ هذا الفيض**) حاملا لعلامة سيميائية هامّة تعكس أيضا قوّة البصيرة، والمتجلية في الفيض " فكأنّ الحرف لا يمارس حضوره إلا بعد مروره عبر البصر"[1] إنّ هذا التّصوير الذي غذّته بيئة الصّحراء(مدينة طولقة) معوّل عليه كي ينتج شبكة متلاحمة من

اللوحات الشّعرية، لأنّ المكان هو ملهم أوّل في هذا العمل المعنوي والمادّي، فهو يرسم الصورة ويحيي باقي الحواس لتتفاعل معها، والمتأمّل لشعر "عثمان لوصيف" يلمح تجليا واضحا لفيض المكان، وكيف أضفى هذا الأخير من خصوصية وروح الانتماء على المعاني الشعرية، إنّ للمكان دلالة تتجاوز الفضاء المعماري المحسوس فهو يمثّل "الذاكرة حافظة للإنسان"[2] ويترجم الحنين إلى الأصول والهويّة وإنقاذ ما تتطلّبه الكينونة، والأماكن تمثّل صورة شعريّة تجلب الخارج إلى الدّاخل، بحيث نشعر أنّ تلك الأشياء جزء منّا، متجذّرة بداخلنا، فالمكان الّذي ينجذب إليه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا خياليّا، إنّه المكان الّذي يحقّق الألفة[3]، ووظّف "لوصيف" لذلك معجما لغويا يظهر المكان كأنّه مغذّ للصور المعبَّر عنها:

كُثبانكِ المهيلة

تحاصرني من كلّ الأوقات

تحاصرني السوافي الأثيرية

للألماس النثير

تحاصرني المؤتفكات المشبعة بغبار الطّلْع

والعطورات الرنانة..[4]

إنّ حياة الصّحراء وطبيعتها تنصهر في ذات الشاعر لتنتج بذلك متتالية صفات تستمدّ قوّتها من نسيجها، وينماز التّصوير البصري هنا بالحركية التي تنبثق منها صور متشابهة ومتعددة، مأخوذة من حقول دلالية مختلفة تمارس التناسل فيما بينها، وتعكس التفاعل بين اللغة والصورة، هذه الثنائية التي تعكس صراعا ينتصر للصورة أمام البدائل والحركية التي تخلقهما على أديم الخطاب الشّعري، هذه العملية كما يقول عنها "عزرا باوند" بأنّها:" بؤرة تغيّر ونشاط"[5] وتمثّل هذه الأبيات مثالا على صورة المكان الذي يرسم لوحة يتناغم فيها الجسد مع إيقاع المكان:

جَسَدُكِ..

حبُّ رُمَّان

عُصَارَةُ بَرْقُوق مُعَتَّق

لَبَأ ينعقد

خمير إكسيريّ

وفتيت من سوسن وكرز

جَسَدُكِ..

مَشْتَبَكُ الجُذُور

شظايا الماء

يندلع حرائق وذهولاتٍ[6]

الموصوف (الجسد) يتّخذ من خلال الوقائع اللسانية أكثر من موضع داخل الفضاء الشّعري، وبالتالي يستدعي دلالات متنوّعة تعمل على التماسك داخل هذا الفضاء، وهي تتصل بالمرجعية التي يغذّيها المكان الصحراوي(حبّ رمّان، لبأ ينعقد، خمير أكيسيري) إنّها دلالات مشحونة بالرّمزية يكون الشاعر فيها المعوّل عليه في فكّ مرجعيتها الرّمزية ، وتعدّ " عملية بالغة التّعقيد، إنّها تستدعي سلسلة من العمليات غير المرئية من أجل نقل العوالم الحسية من موقعها داخل الطبيعة لإدراجها ضمن الأكوان التي تمثّلها الخطاطات المجرّدة"[7] وتصبح مسألة الاعتباطية مغيّبَة هنا مادام أنّ هناك نسبة تشابه بين الموضوع والإحالة، وبالتالي فإنّ الصّورة التي تساهم المواضعات الثقافية في تشكيلها، هي أكثر مقبولية بين المعاني الشّعريّة.

2- الصورة وفائض المعنى:

يشكّل الرّمز في التّصوير الفني الشعري عنصرا هامّا يعمل على انبعاث الرموز الاجتماعية والتاريخية التي تمنح للشعر جماليته ورساليته، والشاعر إذ يربط النماذج المستعارة بالعبارات الشعرية، فإنّه يخلق مرجعية تنظّم المعنى وتمارس فائض معنى فيه، مثل ما ورد في هذا المقطع:

من أيّ بحر بدائيّ

طلعت عليّ

كما طلعت فينوس على اليونان القديمة

من أيّ ملأ أعلى

تبوّأتِ مجدَ مخيّلتي

كما تبوّأت بلقيس عرشَ سَبأ[8]

إنّ استدعاء الرّموز التاريخية وربطها بالصّور الحاضرة يعدّ من الآليات التي تزيد المعنى جمالا وبروزا، لأنّه يبتعد عن الصّدف التي تجعل أيّ رمز في هذا الفضاء يسبح في فوضى المعاني " والصورة إذ توحّد بين حقيقتين متباعدتين في المكان لم تلتقيا قطّ، إنّما تصبح خلقا جديدا، معبّرة عن عالم جديد، وإذ تنفي شكل الأشياء الظاهري وتركّز على صفاتها ورموزها، إنّما تعيد الوحدة لهذا الكون المشتّت المتناقض، والمتباعد"[9] فالصورة نسق يحقق الائتلاف والجمالية بين معاني النص الشعري لأنّه يجمع بين متناقضات عدّة تحت رمز مشترك.

3- المخزون الفكري للشاعر وأثره في إثراء الصورة:

يعد المخزون الفكري الشاعر دعامة أساسية لتكثيف الصور، لأنّه يحدد طبيعتها ونسقيتها أيضا، وفي مواضع كثيرة في الديوان نجد تصريحا مباشرا من الشاعر بصوفيته التي تلهمه نسج صور معيّنة تتلاءم وهذا الاتجاه، وليس مصادفة أن يكون عنوان الديوان حاملا للفظ **الفيض** ذي المدلول الفلسفي الصوفي، والذي يقضي بأنّ كلّ الموجودات صادرة عن الخالق الأوّل وهو محلّ صدورها، فهو نداء الوحدة ضدّ الكثرة، وعن هذا الفيض تتولّد مختلف الصّور، وما يترتّب عنها من مشاهدة وتجلّيات:

الأسباب تبدأ منكِ

وتؤول إليكِ

وكلّ الأشياء تتناسخُ

في مصهر كيميائكِ[10]

إنّ الفيض يمثّل صورة عامة تتذرّر عنها باقي الصّور التي تنوء بالحمل الصوفي عند الشاعر:

ورأيتُ..أنا الصّوفي الشّاعر

أنا الفيلسوف المراهِق

رأيت في نظراتها المريبة

مالم يخطر ببال الآلهة القديمة!

رأيت كيف تتشكّل الدّوّامات العملاقة

للسّدم المتصادمة

كيف تتدفّق المجرّات

في طوفاناتها الطاغية.. الهدّارة

كيف تولد الأنجم التي لا تحصى ثمّ تموت لتولد من جديد[11]

تحضر حاسة البصر دائما في ثنايا هذه العبارات الشّعريّة لتعبّر عن الرّسم التي يمارسها الصّوفي في مخيّلته قبل أن يترجمه في ألفاظه، وتصويره هذا يختلف عن تصوير غيره، كون التّجربة أكثر غنى بالجانب الرّوحي، إنّها تستوحي مدلولات غير عاديّة لتعلن بذلك خرقا للنظام اللساني المتعارف عليه، لأنّها تأخذ طبيعتها من خلال المقامات النورانية التي يرتقي فيها هذا الشاعر الصوفي، وإذا كانت مهمّة المصوّر الفوتوغرافي هو نقل الواقع كما هو، فإنّ مهمّة المصوّر الشّاعر هو قلب الحقائق والحفاظ على جماليتها، وهي مهمّة ليست بالسّهلة.

إنّ إحساس الشاعر بالجمال هو ما يجعل الصّور تزيد إشراقا استجابة له فتغدو محمّلة بأريج المعاني، ومورد الجمال عند الصوفي الشاعر هو المرأة التي يراها في أكثر من صورة، وكأنّها تعكس تجدد هذا الوجود ولا تناهيه:

أتذكّركِ في كلّ صلاة

فأنحني..في خشوع

أغْمِض عينيَّ من رهبة

أسبّح بحمدكِ

وأتضرّع

إلى عينيك اللامتناهيتين

يا صور الله

في بهْوِ المرآة

وياراهبة المعاني[12]

يرتكز حضور المرأة في الشّعر الصّوفي على مرجعيّة العلاقة الّتي تربطها بالرّجل وما يشوب هذه العلاقة من عواطف الألم، والفقدان، والهجر، والوصل، والأنس من جهة، ومن جهة أخرى يمرّر فكرة

الخصب والحياة التي يستمرّ بها الكون، ويعبّر السّطر الشعري **(يا صور الله)** عن تجلّي الجميل في مخلوقاته الذي لا تسعه صورة احدة.

من الصّور التي نسجها "عثمان لوصيف" دالّة على اتّجاهه الفكري ودوره في إضفاء صور تغرف منه، هو تصويره لبعض المناسك التي تتعدّى الحدود التي وضعها التّشريع الفقهي لها، بل تشكّل حالة تخلّي وتحليّ، وارتقاء في العبادة القلبية، ويأخذنا من خلال هذا المقطع آخر إلى تصوّر مناسك شعيرة الحجّ متتابعة :

من كلّ نار

وعلى كلّ قافية ضامرة

يتوافد الحجيج أفواجًا

أفواجًا

شعراء

صوفيون

ومتيمون..

هاهم يدخلون في الإحرام

عارين إلا منكِ

لا مخيطَ..ولا محيطَ

إلّا الطّرر الضّافية

لهالتِكِ القدسية

ملبّين

مهلّلين

ومكبّرين

طائفين..عاكفين

ركّعا..سجّدا[13]

فالحج عند الصّوفيّة حال مفارق تعجز الجوارح أن تفيه حقيقته، فهم يعمدون إلى التّعبير عنه بلغة مضاعفة، مليئة بالرّمز ومشحونة بالحبّ، بل وينسبون كلّ ما لامس القلب واتّصف بالصّدق إلى الحج، لأنّه عبادة تحمل دلالات روحية عميقة، ولعلنا هنا نستشف أهميّة الاتجاه الفكري للصّورة "فالصّورة بحاجة إلى الفكر، وحين تخلو من الفكر تغدو هذيانا وفوضى، ولاطائل منها سوى اللعب بالكلمات"[14] إنّ الصورة في الشّعر لا تقف عند حدود الخيال والعاطفة فقط، بل تحتكم إلى كلّ حيويّ يغذّيه تأمّل الشاعر المتبصّر بحقائق الوجود.

4- الخيال وإنتاج الصّورة:

الخيال هو الدّور الفاعل في إنتج المعاني الشعرية لما يتيحه من حسن ربط بين الصّور والأخيلة المنتجة للعبارة الشّعريّة برابط جمالي يتيح تمثّل الصّور"الخيال هو إذن الآلة الممكنة في كل تأويل رمزي يبتغي الباطن من الحقائق والكامن من المعاني .فهو الآلة التي تمنح للرموز دلالة خاصة، وتقوم بإرجاعها إلى مصادرها الأنطولوجية في التجلي الإلهي"[15] وعلى اعتبار هذه الأهميّة للخيال الّتي تزيد من جمالية الشّعر وتأثيره في الجنس الأدبي، يصبح مجالا يمتزج فيه الذّوق والرّمز والواقعية أيضا، وفي ثنايا الديوان يحضر عنصر الخيال بشكل لافت، بل عليه رباط تفعيل الصور حتّى كأنّها تغدو حيّة، ومن أمثلة حضور الخيال وفاعليته، على سبيل المثال لا الحصر، قول الشاعر:

يداكِ..

حنان الطّبيعة في أوجّ صبوتها

خصلاتك الطّائشة

صورة حيّة لأيّامي الحيرى

لخطواتي الضّالّة

ونهداكِ الطّافران

كوكبان من شمع معجون

سؤالان لجوجان

وفكرتان تستهويان العشّاق[16]

إنّ إحداث ائتلاف بين الوحدات المتنافرة، هو عين عمل الخيال داخل منظومة الشعر التي لا تقف عند حدود المعتاد، بل تمنح للمعاني تلك القيمة المتعالية التي تخلق الدّهشة، إنّ الخيال يعمل على

استباحة كلّ غريب وإدراجه ضمن المألوف، فتغدو الصورة هنا مشخّصة هي الأخرى بفعل حاسّة البصر "فالمحرّضات النّوعية يمكن أن تكون موضوعا لاختيار المطابقة"[17] بمعنى أنّ العالم الخارجي عامل مساعد على تفعيل الخيال والجمع بين المتناقضات في الفضاء الشعري.

خاتمة:

إنّ المتأمّل لتجربة "عثمان لوصيف" الشعرية يلمح تلك الجمالية التي تجلّت في تجديل الصّورة البصرية بالشعر، إنّها عمليّة ساعدت على تفعيلها عناصر متضافرة فيما بينها، وهي: المكان، والرّمز، والاتّجاه الفكري للشاعر، إضافة إلى عنصر الخيال العامل الفعال في تنشيط الصّور، وإضفاء المتعة على المعاني الشعرية، وختاما نستنتج أنّ التّصوير البصري عامل يزيد الشعر جمالية، ولا يمكن الفصل بينهما تكريسا للتداخل بين الفني مع الأدبي.

الاحالات

[1] - بشير مخناش: التشكيل البصري في الشعر العربي المعاصر ، نزار قباني أنموذجا، مجلة: كلية الآداب واللغات، جامعة خيضر، بسكرة، العدد الثامن عشر، 2016، ص: 344

[2] - يوسف عليمات: جماليّات التّحليل الثّقافي- الشّعر الجاهلي أنموذجا-، وزارة الثّقافة، عمان، الأردن، ط1،2004، ص: 133.

[3] - ينظر: غاستون باشلار: جماليّات الصّورة، تر: غادة الإمام، دار التنوير للطباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص: 291، 292.

[4] - عثمان لوصيف: ديوان: ولعينيك هذا الفيض ، مطبعة هومة، الجزائر، (د.ط.ت.ش)، ص: 78.

[5] - كلود عبيد : جمالية الصورة في جدلية العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص: 91.

[6] - عثمان لوصيف: ديوان: ولعينيك هذا الفيض ، ص:23.

[7] - سعيد بن كراد :سيميولوجيا الأنساق البصرية، موقع سعيد بنكراد على شبكة الانترنيت.

[8] - عثمان لوصيف: ديوان: ولعينيك هذا الفيض، ص: 83.

[9] - كلود عبيد : جمالية الصورة في جدلية العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر، ص: 92.

[10] - عثمان لوصيف: المصدر السابق، ص: 67، 68.

[11] - المصدر نفسه ، ص: 63.

[12] - المصدر نفسه ، ص: 34، 35.

[13] - المصدر نفسه، ص: 35، 36.

[14] - كلود عبيد : جمالية الصورة، ص: 97.

[15]- محمد شوقي الزين: بحر أم ساحل؟قراءات معاصرة في فكرة التأويل عند ابن عربي، موقع مؤمنون بلاحدود، قسم الدراسات الدينية، 19 يونيو 2017، ص: 9.

[16]- عثمان لوصيف: المصدر السابق، ص:20،21.

[17]- جماعة مو: بحث في العلامة المرئية من أجل بلاغة الصورة، تر: سمر محمد سعد،مرا: خالد ميلاد، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2012، بيروت، لبنان، ص: 184.